

تربية النفس تربية عبادية (٢)

تكلمنا في الإِسبوع الماضي حول التربية العبادية للنفس. وقلنا أن تربية النفس من أهم القضايا التي ينبغي على المسلم أن يهتم بها. وهي تركز على تربية النفس في معاملتها مع الله وتربيتها في معاملتها مع الناس.

وبدأنا بتربية النفس في معاملتها مع الله من خلال:

١- تربية النفس على استئثار عظمة الله.

٢- تربيتها على مراقبة الله.

وأيضاً من أهم الأسس أو المقامات التي ينبغي عليك يا أخي الحبيب أن تربي نفسك عليه:

٣- كثرة العبادة.

فإذا أردت أن تربي نفسك على العبادات فأكثر من العبادات. واستمع إلى سلفنا الصالح كيف كانوا يعبدون الله جلَّ وعلا. كان الواحد يقضي وقته بالعبادة من قيام وصيام قرآن وذكر وعبادة مطلقة. اسمع لهذه المواقف: جارتان بنتان صغيرتان على سطح المنزل وكانتا لا تصعدان إلا في الليل لأن الليل يستر وكان من حياء الجارتين أنهما لا تصعدان إلا وقت الليل. فصعدتا على سطح المنزل فنظرتا إلى بيت الجيران ثم نزلتا فقلتا لأمهات: أين العمود، عمود الخشب، الذي كان في بيت جارنا؟ قالت الأم: ليس ذلك بعمود! إنما هو منصور بن المعتمر، كان يقوم الليل فمات. كانتا تظنان أنه عمود واقف في بيت الجيران من طول قنوته وقيامه.

كان سفيان، أحد العلماء الصالحين، يقوم الليل فإذا أذن الفجر وضع رجليه على الحائط. لماذا؟ حتى يرجع الدم إلى رأسه من شدة قيامه الليل.

هذا حالهم فماذا حالنا؟ لو سألت نفسك يا أخي متى آخر مرة قمتَ الليل، صليت الضحى، ختمت القرآن، صمت الاثنين والخميس؟. قد يقول بعضنا: منذ رمضان لم أقم الليل، أو لم أختم القرآن، أو لم أصم يوماً واحداً. فأقول لك يا أخي إذا أردت أن تربي نفسك تربية تحقق فيها العبودية لله، فربي نفسك على قيام الليل ولو مرة في الإِسبوع أو الشهر. رب نفسك على الصيام وقراءة القرآن. يقول الله جلَّ وعلا (يا أيها المزمّل قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً).

اسمع يا أخي إلى مسروق وهو أحد الصالحين عليه رحمة الله. هذا الرجل كان يقوم الليل وتجلس زوجته تبكي رافئةً به. تقول: فإذا أذن الفجر يزحف كما يزحف الصبي.

كان أهل البيت الواحد يجزءون الليل ويتقاسمون قيام الليل حتى لا تمر لحظة على أهل البيت إلا فيها من هو قائم بين يدي الجبار جلَّ وعلا.

يُروى أن بيتاً كان فيه أم وابنيها، وكانوا صالحين وكانوا يجزءون الليل ثلاثة أجزاء، ثلث يقوم هذا وثلث يقوم هذا وثلث تقوم الأم. فلما ماتت الأم جزءوا الليل نصفين، كل واحد يقوم النصف. فلما مات أحدهما كان الآخر يقوم الليل كله.

عُبادُ ليلٍ إذا جنَّ الظلامُ بهمُ كم عابدٍ دمعُهُ في الخدِّ أجراهُ

وأسُدُّ غابٍ إذا نادى الجهادُ بهمُ هُبُّوا إلى الموتِ يَسْتَجِدُّونَ رؤياهُ

يا ربِّ فابعثْ لنا من مثلهم نفعاً يُشَيِّدونَ لنا مجداً أضعناه

يا أخي الحبيب: اعلم علم اليقين أن الذي يُخَذَلُ في قيام الليل، وفي صلاة الفجر، يخذل في الجهاد في سبيل الله. أسمع لابن المبارك! أحد المجاهدين، تعال إليه في الليل إذا نام الناس، قام يصلي حتى يطلع الفجر، فإذا أصبح الصباح رفع السلاح مجاهداً في سبيل الله. هذه هي العبادة يا عباد الله. وليست كما يفعل البعض، أننا أمام الناس صالحين وإذا جنَّ الظلام وإذا نزل الربُّ إلى السماء الدنيا لا تجد من يقوم لله جل وعلا، ولا تجد عبادة السر ولا تجد قرآناً يتلى أو عيناً تدمع. بل تجد عباد التلفاز وعباد الشهوات. تجد بعض المسلمين يسهر الليل كله بقبل وقال وغيبة ونميمة وأكل وشرب ومعصية الله ولا يخطر بباله أن يقوم ولو بركعتين. بل إنه ينام قبل الفجر بدقائق حتى وقت الظهر.

فأقول لكم أيها الأخوة والأخوات: أيها الأخ الحبيب: أمامك خياران: إما أن تترك لنفسك العنان تفعل ما تشاء، تجري خلف الشهوات والملذات مثل البهائم كما يقولون أكل... شرب... نكح... نام... . وإما أن توقف هذا التفريط وهذا الإهمال والتقصير، وتلك الغفلة وتربي نفسك تربية عبادية. تربيها تدريجياً على طاعة الله، على المحافظة على صلاة الفجر والعصر والصلوات الخمس وقيام الليل وعلى كل الفرائض حتى ترقى بهذه النفس إلى درجة العبودية، وحتى تصل بهذه النفس لدرجة أن تحبَّ الله ويحبها الله. فقد جاء في الحديث عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال (ثلاثٌ يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم: الذي إذا انكشفت فنته قاتل وراءها بنفسه الله عز وجل. فأما أن يُقتلَ وإما أن ينصره الله عز وجل ويكفيه. فيقول: انظروا إلى عبيدي هذا كيف صبر لي بنفسه. والذي له امرأة حسناء وفرش ليلٍ حسن فيقوم من الليل. فيقول الله: يذُرُ شهوته ويذكرني، ولو شاء رقد. والذي كان في سفرٍ وكان معه ركب، فسهروا ثم هجعوا، فقام من السحر في ضراء وسراء). وقد بينَّ الله عز وجل أن المحافظين على قيام الليل هم المستحقون لخيره ورحمته فقال: (إنَّ المتقينَ في جناتٍ وعيون، أخدينَ ما آتاهم ربهم، إنهم كانوا قبلَ ذلكَ مُحسنين، كانوا قليلاً مِنَ الليلِ ما يهجعون، وبالأسحارِ هم يستغفرون). وقال سهل بن سعد: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت. واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به. وأحبب من شئت فإنك مفارقه. وأعلم أنَّ شرفَ المؤمنِ قيامُ الليلِ وعزهُ استغناؤه عن الناس.

فيا أيها الأحبة: اعلموا أن المقصد من هذا الكلام ليس الاستزادة من العلم وحفظ بعض الآيات والأحاديث التي نرغبنا بقيام الليل وبالعبادات بشكل عام فقط. بل المقصود كيف يكون هذا الكلام في حياتنا، كيف نطبق هذا الكلام على واقعنا. لا نريد أن نستمع لكلام الدين فقط بل نريد أن نحيا حياة الدنيا، فسادتنا وسعادة البشرية بالالتزام بالدين والأعمال الصالحة. فهل أنت مستعد لتطبيق ما سمعته؟ كلُّ واحد يسأل نفسه هل أنا مستعدٌ لتخصيص يوم واحد في الإِسبوع لقيام الليل، صيام الاثنين والخميس، قراءة القرآن... .

وإن كانت نعم، فأرجوا أن تبدأ من هذه الليلة، لعل الله عز وجل إذا رأى منا إقبال أن يقبل علينا برحمته وفرجه وعفوه.

أسأل الله عز وجل أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وأعوذ بالله أن أكون جسراً تعبرون به إلى الجنة ويرمى به في جهنم.

ثم أعوذ بالله أن أذكركم به وأنساه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

ذكرتُ أن هناك أسسٌ أو مقاماتٌ يجبُ عليك أن تربي نفسك عليها في تعاملها مع الله. وذكرتُ من هذه الأسس:

١- تربية النفس على استشعار عظمة الله.

٢- تربية النفس على مراقبة الله.

٣- تعويد النفس على كثرة العبادات ومنها قيام الليل.

وأيضاً من الأسس التي ينبغي علينا أن نربي أنفسنا عليها مقام الورع. فالورع مقام من مقامات العبودية بينك وبين الله. وهو مقام عظيم لا يصله إلا قليل من الناس. وهو أن تترك المكروه خشية الوقوع في الحرام وتفعل المستحبات خشية أن تترك الواجبات. حتى قيل عن بعض الصالحين: أنهم تركوا الكثير من المباحات خشية أن يقعوا في الحرام. واستمع لهذا الموقف من أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو يأكل طعاماً صنعه له غلامه ثم قال أبو بكر بعد أن أكل الطعام: من أين لك هذا الطعام؟ قال: جئت به من مالي. قال أبو بكر: ومن أين حصلت على هذا المال؟ قال الغلام: كنت تكهنْتُ لإنسان في الجاهلية، ونحن نعرف أن الكهانة والشعوذة والعرافة كلها شركٌ بالله جل وعلا، فأعطاني مالاً وبقي منه القليل، فاشتريت به طعاماً وأعطيتك. الآن أيها الأخوة: أبو بكر معذور لأنه أكل الطعام وهو لا يعلم، فكان يكفيه أن يستغفر الله جل وعلا وينتهي الأمر. ولكن انظروا إلى ورع أبي بكر. أتعرف ماذا فعل؟ وضع أصبعه في حلقه حتى أخرج كل الطعام الذي في بطنه، ثم قال: (والله لو لم تخرج إلا بخروج روحي لأخرجتها).

ومن المقامات التي يجب أن نربي أنفسنا عليها بيننا وبين الله، مقام تربية النفس على التقلب بين الصبر والشكر. يقول رضي الله عنه (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر الله فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له). ولو نظرنا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم لوجدناه أمام الصابرين.

ولو تأملنا في حياة أصحابه، في حياة بلال وصهيب وعمار وياسر وسمية وخبيب وغيرهم، منهم من قُتل ومنهم من وُضع على الجمر المحمى ومنهم من جُلد ومنهم من طُعن بفرجها. رغم هذه الآلام وتلك الجراحات إلا أنهم ثبتوا على هذا الدين وصبروا حتى خرجت أرواحهم طاهرة مؤمنة لله رب العالمين.

واذكر في هذا المقام قصة امرأة مؤمنة صبرت على دينها حتى فاضت روحها إلى بارئها، وتلك المرأة هي ماشطة ابنة فرعون. كانت تمشط شعر بنت فرعون فإذا بالمشط يسقط من يدها فقالت المشطة: بسم

الله، وأخذت المشط. فقالت البنت: أتعنين أبي؟ فقالت الماشطة المؤمنة: بل ربُّك وربُّ أبيك الله ربُّ العالمين. فقالت البنت: سوف أخبر أبي. فقالت الماشطة: أخبريه وليكن ما يكون. أنظروا عباد الله على الثبات. فاستدعاها فرعون، وتعرفون من فرعون، الذي قتل الرجال واستحيا النساء واستعبد الناس، الطاغية الذي كان يقول: أنا ربكم الأعلى. وقفت أمامه امرأةٌ ضعيفةٌ خادمةٌ ماشطةٌ لأبنته. هذا الموقف لا يستطيع أن يقفه الرجالُ الأشداء. وقفة المرأة المؤمنة الصابرة المحتسبة أجرها عند الله. فقال لها فرعون: يا ماشطة ألك ربُّ غيري؟ قالت: نعم، ربي وربك الله رب العالمين. قال: يا ماشطة توبي وأرجعي!. قالت: ربي وربك الله رب العالمين. فجاء فرعون بأطفالها الصغار، ثم أمر بقدرٍ فيه زيتٌ ثم أحماه على النار حتى أصبح يغلي. ثم جاء بأولادها واحداً تلو الآخر. ورامهم في القدر أمام أمهم وهم يبكون، واللحم ينفصل عن العظم. والمرأة صابرة ثابتة على دينها. ثم قالت لفرعون: أطلب منك طلباً واحداً. فظن فرعون أنها سترجع عن دينها فقال: ما هو؟ قالت: أطلب منك أنك إذا قتلتني أن تجمع عظامي وعظام أولادي في قبر واحد.

فيا أيها الأخوة والأخوات: ربو أنفسكم على استشعار هذه المعاني وربوها على تعظيم الله ومراقبته وكثرة عبادته وعلى الورع وعلى الصبر والثبات على هذا الدين ربوها على كثرة الطاعة والعبادة.

وصل اللهم وبارك وسلم على سيد الخلق محمد ﷺ سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.